أبغضك. بارك الذي يلعنك وعامل بالحسنى الذين يسيئون إليك. لا. ليس يكفينا في حربنا مع الغريزة أن نخلق بالفكر والخيال قيماً إنسانيّة تعاكس القيم الحيوانيّة. بل لا بدّ لنا من إرادة نيّرة، صلبة، تتولّى حراسة تلك القيم، وتحفظها من الفساد، وتردّ عنها الهجمات العنيفة التي ما تفتأ الغريزة تشنّها عليها. لا بدّ لنا، إلى جانب الخيال الخلّاق والفكر المدبّر، من إرادة فاهمة، منفذة. وهذه، لسوء الحظّ، ما تزال عند سواد الناس طفلة مقنّعة مقمّطة لا يصعب على الغريزة العاتية أن تكمّ فاها بنبرة أو بحركة. ولكنها طفلة قابلة للنّموّ. ونموّها بطيء إلى حدّ أنّنا نكاد نقنط منه. ولولا أنّها في بعض أفراد الإنسانيّة بلغت أشدّها فجاءت بالعجائب لكان أمل الإنسان بالتغلّب على الغريزة ضرباً من التعليل والتخدير.

لقد كان من انتصارات الفكر والخيال الباهرة في عالم الحسّ، ومن التواء الإرادة وتقهقرها في عالم الغريزة، أن راح أكثر الناس ينعون على الإنسان هزيمته في حربه مع غرائز البهيمة فيه. فيقولون إنّه ما تقدّم خطوة بفكره وخياله حتى تراجع خطوات بأخلاقه. فهو في طمعه وجشعه وقساوته وظلمه وتكالبه على الحطام وتهالكه في سبيل الملذّات الحيوانيّة حيوان وأحطّ من حيوان. ولكنهم ينسون